من سبع سنوات
في المقتطف

الثورة المقبلة

للورد سنودن
وزير مالية بريطانيا في وزارة العمال

هل يزيد رغد العيش ورخاء الناس بازدياد المكتشفات العلمية وتكاثر المستنبطات الحربية واتقان الوسائل الصناعية على اختلافها؟ ان نظرة عجلى الى دور الصناعة تكفي لان تقنع الناظر بان السيطرة على قوى الطبيعة واستخدامها في الآلات يخفف من عبء العمل الشاق عن كاهل الانسان، وترفع مستوى معيشته. فاذا ذهب احد المفكرين مرتاباً في فائدة هذه المكتشفات والمستنبطات متسائلاً فيما بينه وبين نفسه «هل يستفيد العمران شيئاً ما من المكتشفات والمستنبطات التي ينتظر تحقيقها في قرن من الزمان» حسبه الناس متعنتاً ليس له مسوغ فيما يذهب اليه. ومن الاقوال المأثورة عن الفيلسوف جون ستيورت مل قولهُ «اني ارتاب في ان الآلات الصناعية قد خففت عبء العمل اليومي عن كاهل عامل واحد». فاذا حذفنا ما في هذه العبارة من المبالغة المقصودة وجدنا فيه نصيباً كبيراً من الحقيقة

> ان قيمة هذا المقال تظهر في عيني القارىء اذا عرف أن واضعه كتبه في اواخر سنة ١٩٢٨ حينما كانت الازمة الاقتصادية العالمية في مستهلها او عند ما قال خبراء الاقتصاد ورجال المال والاعمال ان انهيار الاسواق المالية حينئذ ليس الا اضطراباً وقتياً لا يلبث ان يزول. وقد كان هذا المقال خاصاً بالمقتطف

لقد زادت قوة الانتاج في كثير من الصناعات نحو خمسمائة ضعف في ١٥٠ سنة بادخال الآلات البخارية والكهربائية الى المعامل. فاذا حسبنا ان مائة عامل كانوا يستطيعون من مائة وخمسين سنة ان يصنعوا مقدار كذا من صنف ما في اسبوع اصبحوا الآن يستطيعون ان يصنعوا خمسمائة ضعف ذلك المقدار في الوقت عينه ولكن بمساعدة الآلات. ومع ذلك لا نرى نقصاً في ساعات العمل يوازي هذا التقدم في سرعة الانتاج ولا زيادة في اجور العمال تفق معهُ. على ان الانصاف يقضي علينا بأن نقول ان الثورة الصناعية زادت الثروة العالمية فهيئت السبيل لسكان

الارض المتزايدين عاماً بعد عام ان يعيشوا في مستوى من الرخاء اعلى من مستوى اسلافهم . واظهر الصفات التي يتصف بها تقدم علمي ميكانيكي كالتقدم الذي شهدناهُ منذ اواسط القرن الماضي صفتان : الاولى — تجميع الثروة في يدي افراد قلائل من سكان البلدان الصناعية . والثانية — زيادة المشتغلين باعمال غير منتجة . لذلك يتعذر على اصحاب الصناعات ان يمنحوا العمال المنتجين ما يستحقونهُ من الاجور . ولا ريب في ان التقدم العلمي والصناعي افاد فائدة غير مباشرة جماعات السكان الذين لم يشتركوا في تحقيقه كمالي . واشهر هذه الفوائد ارتقاء طرق المواصلات ورخصها وتعدد وسائل اللهو والمطالعة والتهذيب ورخص السيارات واتقان المخاطبات اللاسلكية وما اليها

والسبب في ان التقدم العلمي والصناعي لا يظهر له اثر في رخاء الجمهور وهناءته هو ان بلدان الارض لم تنتظم بعدُ انتظاماً يمكنها من استهلاك كل ما تقذف به المصانع الى الاسواق . لذلك تكون النتيجة الاولى التي تنجم عن استنباط وسيلة ميكانيكية جديدة لترقية الصناعة ان يستغنى عن عدد من العمال لان اصحاب الصناعة اذا احتفظوا بجميع العمال واستخدموهم في ادارة الآلات الجديدة زاد ما تنتجهُ المعامل عن حاجة الاسواق اليه . لذلك يعمد اصحاب الصناعات الى الاستغناء عن بعض عمالهم لكي يحفظوا ما ينتجونهُ ضمن نطاق محدود لئلا يكثر المعروض وتهبط الاسعار

فماذا ينتظر ان يحدث اذا استمرَّ التقدم العلمي والصناعي سائراً سيراً حثيثاً الى الامام من غير ان يصحبهُ تقدم في مقدرة البلدان على استهلاك الانتاج الزائد الذي تمهد لهُ الوسائل الصناعية الجديدة سبيل الزيادة والسرعة ؟ ان مقدرة البلدان على استهلاك البضائع المختلفة يتوقف على مقدرة الطبقة المعروفة بطبقة المال على الشراء . فاذا لم تزد مقدرتهم على الشراء لم يتسع نطاق الاسواق المختلفة لاستهلاك ما تنتجهُ المصانع وصرنا حينئذٍ نخشى ثورة صناعية اخرى . وكل الدلائل تدلُّ على اننا قريبون جداً من انقلاب خطير الشأن في وسائل الصناعة العلمية . اذ يظهر لي اننا على عتبة عصر جديد تستعمل فيه العلوم الكيماوية في الصناعة فتحدث ثورة اعظم اثراً وأبعد مدى من الثورة الصناعية التي احدثها استنباط الآلة البخارية . وكيف اجلنا الطرف نجد ان العلوم مطردة التقدم لان كل اكتشاف جديد يحفز العلماء الى البحث والاستقصاء ويفضي الى مكتشفات كثيرة . وقد يكون في امكان الكيماويين ان يزيدوا خصب الارض في مدى قرن واحد زيادة تجعل الناس في غنى عن اربعة اخماس الاراضي المزروعة الآن . فيقضى على كثير من المواد الخام المستعملة الآن في الصناعة وتحلُّ محلها مواد مركبة تركيباً كيماوياً . ان تقدماً في هذه الناحية من نواحي العمران يقلب رأساً على عقب توزيع العمل بين الناس وتعود الزراعة لا تحسب الركن الاساسي في ثروة الامم

تجيء الثورات احياناً فجأة كما جاءت الثورة الصناعية منذ ١٥٠ سنة وفي بعض الاحيان تأتي ببطء

كانها تنتظر تضافر العوامل التي تمهد لها السبيل . فهل في العمران الحاضر عوامل تهيأ وتتضافر لاحداث ثورة ما ؟

انظر الى المستنبطات التي حققت في الخمسين السنة الاخيرة . التلفون — المصباح الكهربائي المولدات والمحركات الكهربائية — الاتوموبيل — الخاطبات اللاسلكية على اختلافها — السفن التي تحرق البترول — الحرير الصناعي — الآلات التي تبيع كالاحياء — هذه هي بعض المستنبطات التي قذف بها العلماء والمستنبطون والصناع الى ميادين الحياة اليومية

وقد اتقنت الوسائل الميكانيكية المختلفة اتقاناً جعلها كانها مستنبطات جديدة . فقد كثر اتحاد العمال في اميركا نشرة اقتصادية يؤخذ منها ان مقدرة العامل على الانتاج زادت من أول القرن العشرين الى الآن خمسين في المائة وان هذه الزيادة سببها اتقان الوسائل الصناعية الميكانيكية

ومما يؤسف له وقد يكون له أثر شديد الخطر في العمران ان كثيراً من البلدان زادت قوة معاملها ومصانعها زيادة كبيرة لا تسوغها حالة الاسواق العالمية ولذلك ترى ان جانباً كبيراً من هذه المعامل واقف عن العمل لا يبدي حراكاً . ففي ١٧ سنة (١٩٠٧ — ١٩٢٤) زادت القوة المستعملة في مناجم بريطانيا ومعاملها من ٨ ملايين حصان الى ١٥ مليوناً ولكن ما تنتجهُ هذه المناجم والمعامل لم يزد قط . وهذا يعود بنا الى ما قدمنا الكلام عليه وهو اذا لم تنتظم بلدان العالم انتظاماً يمكنها من استهلاك ما تنتجهُ المعامل التي تكثر وتزداد انتاجها كل سنة باتقان اساليب العلم ووسائل الصناعة لم يجد هذا التقدم العلمي الصناعي نفعاً ما

فالنتيجة العامة التي نصل اليها بعد البحث المتقدم هي هذه : ان التقدم العلمي والصناعي سريع لا تستطيع بلدان الارض ان تجاريهُ بزيادة مقدرتها على الاستهلاك والتكيف على ما تقتضيه الاحوال الصناعية الجديدة . وانهُ اذا استمر كذلك وقف كثير من المصانع عن العمل ووقعت لا محالة ازمة خطيرة جداً بزيادة العمال العاطلين . ولو كان في الامكان لكان يحسن بنا ان نقف عقداً أو عقدين من الزمان عن الاكتشاف والاستنباط لنعنى في أثناء ذلك بتنظيم ما أتقناه حتى الآن ومحاولة الوصول إلى نقطة التوازن بين الانتاج والاستهلاك . بذلك فقط تمكن من توزيع المنافع التي تنجم عن ارتقاء العلم وزيادة سيطرته على أساليب الصناعة . وما لم نفعل ذلك بطريقة من الطرق لا بد أن نضيق يوماً فنرى الصناعة في ركود وجماهير العمال العاطلين في فقر مدقع . فاذا حصل ذلك صعب على نظام العالم المالي تحمل هذا العبء ان لم يتعذر عليه ذلك وحينئذٍ ينحني تحتهُ وينهار . ما أغرب النتيجة التي وصلنا اليها — كلما زادت مقدرتنا على الانتاج زادت المصاعب في الاستفادة منها وتوزيع المنتج على جميع طبقات الناس توزيعاً عادلاً

لقد صدق قول الشاعر « مجيء المعرفة سريع ولكن مجيء الحكمة بطيء »